الأَثـرُ القُرآنـي في بعض نُصوص دُعَاء الافْتِتَاح
دِرَاسَةٌ فِي المضْمُون

◆ د. أحمد مُوَفّق مهدي[1]

■ **خلاصة**

شـكَّلت أدعية الإمـام المهدي عجل الله فرجه الشريف مرتكزاً أساسـيًّا، حتى غدت مرجعًا مهـمًّا من مراجع المسلمينَ بعد كتاب اللهِ تعالى، فقد امتازت بحضورِ النَّص القرآنيّ العزيز فيها بالقُدرةِ على اجتلاب الصُّور، وتمثيل المعانيّ. اذ تعدُّ في مضمونها نهجًا للحياة، كونها قائمة على علاقة بين الذَّات الإلهيَّة المقدسـة والإنسـان داخل هذا العالم، ولاريبَ أنَّ رحلة البحث في هكذا موضوع، تُعتبر رحلة شاقّة وشيِّقة في آن معًا.

فالأثـرُ القـرآنيّ الذي تركـهُ الإمام عجل الله فرجه الشريف حـاضراً، والذي دعا فيـهِ إلى تثبيـت ركائز الدِّين الإسلاميّ الحنيف، كان لهُ أثر كبير في تثبيت تلكَ الرَّكائز وترسيخها، لأنَّهُ ذا تأثير عميق في نفس المتلقيّ بصورةٍ خاصّة، والمجتمع الإسـلاميّ بصورةٍ عامة، وما يعكسه ذلك من نتائج إيجابيَّة.

الكلمات المفتاحية: الأَثَر- القرآن الكريم- دُعَاء الافتتاح – التوحيد- المشيئة الإلهية..

1 - كليَّة التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة البصرة – العراق

مقدّمة

الحمدُ لله جلَّتْ أسماؤُه، وسمتْ أوصافُه، الذي علَّمَ الإنسانَ، وشرَّفَ العربيَّة بنزول القرآن، وأفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم على النَّبي الأمين، الذي فتحَ أبوابَ العلم والرَّحمة للعالمينَ، وعلى غصنِ دوحته، وأوَّل مَنْ صَدَّقَ برسالته، وعلى الصدِّيقة الزَّهراء البتول، وعلى الذُّريّة الطَّاهرة، مِنْ ولدِهم أجمعين.

أمَّا بعد..

إنَّ منظومةَ الأدعيَّة الصَّحيحة في الموروث الرُّوائيّ لأهلِ البيت هي دائرةُ معارف كاملة، ترشدُ الإنسانَ إلى الطَّريق القويم في كلِّ جوانب حياته، فهي الامتداد الطَّبيعيّ للقرآن الكريم، كتاب الله تعالى الذي ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[فصلت:42]، وإنَّ الأدعيَّة الشَّريفة للأئمة المعصومينَ عليهم السلام هي من ضمن هذه المنظومة الكاملة، وهي من أصحّ النُّصوص وأهمها، ولعلَّ الرُّواة كانوا يُحافظون عليها أكثر من غيرها، لأنَّها نصٌّ تعبديّ كانوا يتعبدونَ بهِ في مشاهد المطهرين، ولذلك اكتسبت الأدعيَّة قُدسيَّة قد لا توجدُ في غيرها من الأحاديث.

ولأنَّ القرآنَ الكريم نزل على الرَّسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وتلقّته عترتهُ الطَّاهرة تلقيًّا كاملاً؛ فقد كان النَّصُ القرآنيّ بمفرداته وأساليبه وآلياته اللغويَّة مُسيطرًا وحاكمًا على أسلوب كلامهم، ويجري على ألسنتهم عليهم السلام جريا طبيعيًّا بصورةٍ قد لا يشعرُ بها المتلقيّ.

والاستعانة بالقرآنِ الكريم، ديدنُ الأئمة المعصومينَ عليهم السلام، ومنهم الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف،

وهذا البحث هو لإظهار الأثر والتَّأثر بالقرآن الكريم في أدعيَّته ﷺ، ولا سيّما دعاء الافتتاح، والوقوف على دور القرآن الكريم الكبير في تعميق معاني ذلكَ الدُّعاء الشَّريف.

وقد حاولت جاهدًا -في هذا البحث- بيان مضمون الأثر القرآنيّ في دعاءِ الافتتاح الوارد عن مولانا الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، مستهلاً البحث بمقدَّمةٍ، ومن ثَمَّ ألحقتها مبحثينِ، وخاتمة.

المبَحْثُ الأوّل، اشتمل على: ملامح الأَثَر وَالتَّأَثّر بالْقُرآن الكَرِيم فِي أَدْعِيَّةِ الإمَام صَاحِب العَصْر وَالزَّمَان ﷺ، أما المبحَث الثَّانيّ فتحدّث فيه عن: الأَثَر القُرآنِي وَمَجَالاته في دُعَاء الافتتَاح[1]، ولا بُدَّ مِنْ الاشارةِ إلى أنَّ الباحثَ قد اعتمد منهجَ التَّحليل، لأنَّ طبيعةَ الدِّراسة تتطلبُ ذلكَ.

1 – يُعتبر"دعاء الافتتاح" من الأدعية المُعتبرة والمشهورة في المجاميع الروائية، فقد ذكره الشيخ الطوسي في كتابه "تهذيب الأحكام": (١٠٨/٣)، والسيد ابن طاووس الحسيني في كتابه "إقبال الأعمال":(138/1)، والمحدّث الجليل الثقة الشيخ عباس القمّي في كتابه "مفاتيح الجنان": ص202، وهو على النحو الآتي: عن محمد بن أبي قرة بإسناده، قال: حدثني أبو الغنائم محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله الحسني، قال: أخبرنا أبو عمرو محمد بن محمد بن نصر السكوني (رضي الله عنه)، قال: سألت أبا بكر أحمد بن محمد بن عثمان البغدادي (رحمه الله)، أن يُخرِج إليّ أدعيةَ شهر رمضان، التي كان عمّه أبو جعفر محمد بن عثمان بن سعيد العمري – وهو السفير الثاني للإمام المهدي (عجّل الله فرجه) في عصر الغيبة الصغرى (ت٣٠٥هـ). قال فيه الإمام المهدي (عجّل الله فرجه): "وأما محمد بن عثمان العمري فرضي الله عنه وعن أبيه من قبل، فإنه ثقتي وكتابه كتابي". حياة الإمام المهدي، الشيخ باقر شريف القرشي: ٧٣- (رضي الله عنه وأرضاه) يدعو بها، وهو قد أخذها عن الإمام المهدي(عجّل الله فرجه) باعتباره سفيراً شرعيًا عنه، فأخرجَ إليّ دفترا مجلدا بأحمر، فنسخت منه أدعية كثيرة، وكان من جملتها: ... وتدعو بهذا الدعاء أي: دعاء الافتتاح في كل ليلة من شهر رمضان، فإن الدعاء في هذا الشهر تسمعه الملائكة وتستغفر لصاحبه، يُنظر: حياة الإمام المهدي، ص. ص. 72 – 73.

المبحث الأول

ملامحُ الأثَر والتأثُّر بالقرآن الكريم في أدعية الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف

يُطلق أصحاب النَّقد الحديث على الأثرِ والتَّأثرِ لفظ (التَّناص)، وهذا اللفظ القائم على أساس أنَّ "كلَّ نصٍ يتشكلُ من تركيبة فسيفسائيَّة من الاستشهادات، وكلَّ نصٍ هو امتصاص أو تحويل لنُصوص أُخرى"[1]، فالتَّناص هو تفاعل النُّصوص المختزنة في نصٍ واحدٍ، ويحدث ذلكَ باستدعاء خبرات متراكمة موروثة في الذِّهن، وإعادة صياغتها وسبكها من جديد بحسب ما يُمليهِ الموقف الفنيّ على الكاتب أو الأديب.

وفي الموروث النَّقدي العربيّ يُسمّى السَّرقات، وهي اللفظة الشَّائعة على ألسنة النُّقاد القدامى، وغرضهم من ذلكَ الغضاضة من شأن الأعمال الأدبيَّة للشعراء المحدثين[2].

وكان مِن الإنصاف أن يُسمى ذلكَ بـ"التَّداعي في الأفكار والتَّلاقي في الهواجس والاشتراك في المفاهيم الشَّائعة بين الباحثين والأدباء والشُّعراء"[3]، فالأدبُ نتاج إنساني مشترك لا مندوحة للكتَّاب والمبدعين من الاغتراف منهُ والاستعانة به، واستجلابه من المخزون الذهنيّ، والعبرةُ في إبداع هذا الكاتب أو ذاكَ الأديب، هي في مَديات الإضافة والنَّقصان ممتزجينِ بومضاتٍ نفسيَّة شعوريَّة يُحتّمها عليه موقفه الفنيّ الآني، فالموقف الأدبي عملية تجلٍّ روحيَّة.

ولاشكَّ أنَّ فرصة تأثر الصِّياغات القرآنيَّة على صعيد بناء لغة تقتفي لغة القرآن، وإعادة صياغة الفنّ القولي المتمثل بالشِّعر والخطابة، وتشكيله تشكيلاً قرآنيًّا، قد ضاعت من أيدي أرباب هذا الفن، في عصر صدر الإسلام وما تلاهُ، واقتصرت على أُناسٍ محدودين للغاية، يقف على رأسهم النَّبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، وابن عمهِ علي بن أبي طالب عليه السلام، والأئمة المعصومين.

---

1 - الشنيني، إيمان، التناص النشأة والمفهوم، ص22.

2 - ابراهيم، طه أحمد، تاريخ النقد الأدبي، ص. ص. 102 – 103.

3 - مقابلة شخصية مع الأستاذ الدكتور محمد حسين علي الصغير، بتاريخ : 1/ 12/ 2007م.

والتَّأثرُ بالقرآن الكريم في صناعة نصٍّ ما، يأتي من فهم طبيعة اللغة القرآنيَّة التي يدركها العربيّ بفطرته، ولكنَّه لا يُحسنُ التَّعبير عنها لجدة مضامينها بل عليه الانصهار بروح القرآن، والذَّوبان في مضامينه لتغدو اللغة حينئذٍ صورة سريعة للمعنى، فلا ينشغلُ الذِّهن في أدائه، ولا يكدّ في استجلاب الألفاظ المناسبة لتجليته.

وهذا يُفسّرُ سرّ ذهول الشِّعر العربيّ عند ظهور القرآن وما بعده، فقد لمس النُّقاد العرب القدامى ضُعفًا في الشِّعر، وهو ضعف واضح بمُجرد مقارنته بالعهد الجاهليّ غير البعيد عنهم، في الوقت الذي يُمكن أن يكون النَّص اللغويّ القرآنيّ عامل قوة وإثراء لغويّ عظيم في الفنِ الشِّعري، أليس ذلك غريبًا ؟.

نعم، هناكَ فنٌّ شعريّ رفيع في بعض نصوص حسَّان بن ثابت، وكعب بن زهير، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك في مدح الرَّسول ﷺ وانتصاراته في حروبه، وهناك صور فريدة في رثاء أبي ذويب الهذليّ لأبنائه، ولكن على إجمال المرحلة - عصر صدر الإسلام - ومقارنة بأعمال الشُّعراء الجاهليين نلمس الفرق واضحًا بيّنًا في قوة الأداء وحرارة المعنى وقدرة التأثير، فأُدباء الدَّعوة الإسلاميَّة لم يصلوا إلى حدّ التأثير القرآني المأمول في ترسم بناء لغويّ محكم يتناسبُ مع الأثر القرآني، واكتفوا باقتباس اللفظة أو الجملة القرآنيَّة، نحو: قول كعب بن مالك في يوم الخندق[1]:

وَيَعْلَمَ أهلُ مكَّةَ حينَ سَارُوا وأحـــزابٌ أَتَوْا مُتحَزِّبِينَا

بأنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيـكٌ وأنَّ اللهَ مَوْلَى المُؤْمِنِينَا

وقولهُ[2]:

شَهِدْنَا بِأَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ بِالْحَقِّ ظَاهِرُ

1 - ديوان كعب بن مالك، ص 280.

2 - ديوان كعب بن مالك، ص 200.

ونحو: قول عبد الله بن رواحة[1]:

شَهِدتُ بِأَنَّ وَعدَ اللَهِ حَقٌّ وَأَنَّ النارَ مَثوى الكافِرينا

فالأثرُ والتَّأثيرُ القرآنيّ في هذهِ الأبيات لم يمس أبعد من اقتباس اللفظة أو العبارة القرآنيَّة، دون بناء الصُّورة الجديدة، أو الجري إلى تتبّع الجملة القرآنيَّة والاقتداء بصناعة علاقات تركيبيَّة على غرارها، مثل بناء الجُمل على علاقات الفن الاستعاري وصياغة الجمل بالتَّشبيه التَّمثيلي، وهي كلَّها ممَّا حفل بهِ التَّعبير القرآنيّ، وقلَّ في فن القول العربيّ الجاهليّ، فضلاً عن استعمالات فنون البديع المختلفة.

فالقرآنُ الكريم جاءت لغتهِ بنسقٍ واحدٍ منتظم مختلف الموضوعات في الموعظة بناء لغوي مُحكم تشبه قوة نسجه في موضوعِ التَّشريع أو خلق الإنسان والكون من غير ضعف في هذا النَّسج أو ذاك، وفي البناء اللغويّ القرآنيّ عناصر حياة تجعل منهُ لا يخلق على الآذان سماعه ولا يدبُّ الملل إلى سامعه، ففي أسلوب القرآن لا ترى غير صورة واحدة من الكمال، وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التَّركيب وموضع التَّأليف وألوان التَّصوير وأغراض الكلام[2].

لذلكَ، لم نرَ أديبًا أجاد في المعاني الإسلاميَّة الجديدة إجادة الأديب الجاهلي لمعانيهِ؛ لأنَّهُ لا يمُكن التَّعبير فنيًّا عن المعنى الإسلاميّ الجديد بلغة الجاهليَّة القديمة، فعليهِ التَّخلي عن الثَّقافة اللغويَّة الموروثة القديمة والانصهار في الثَّقافة القرآنيَّة الجديدة، فقد وفرت الصِّياغات القرآنيَّة زخماً عالياً من الثَّراء اللغويّ، وكان على الأديبِ في عصر النُّبوة التَّنبه إليهِ واقتفاء أثره، واستثماره بشكل كليّ وليس الوقوف عند حدّ اقتباس اللفظة أو الجملة من القرآن، وأعني بالشِّكل الكليّ البناء اللغويّ المتكامل للنّص القرآنيّ القائم على نظام من العلاقات التَّركيبيَّة التي تعمقت فيها الدَّلالة بوسائط لغويّة امتزج فيها الصَّوت بالصُّورة من غير أن يُسمّى شعرًا.

وكان الأثر الحقيقيّ للقرآنِ في الكلامِ العربيّ على لسان أمير المؤمنين عليه السلام، ومن ثمَّ أولادهُ

1 - ديوان عبد الله بن رواحة، ص 38.
2 - الرفاعي، تاريخ الأدب العربي، ص241 .

الميامين الطَّاهرين، مروراً بالإمام الحسن(عليه السلام) وُصولاً إلى الإمام المهدي(عجّل اللهُ في فرجه الشَّريف)، ولهذا نشأ الإمام(عليه السلام) حافظاً للقرآن واعيًّا لآياته يعرفُ باطنها مثلما يعرفُ ظاهرها، وكيف لا يكون ذلكَ وهو(عليه السلام) ربيب "شَجَرَةِ ٱلنُّبُوَّة، وَمَوْضِعِ ٱلرِّسَالَة، وَمُخْتَلَفِ الْمَلاَئِكَة، وَمَعْدِنِ الْعِلْمِ، وَأَهْلِ بَيْتِ الْوَحْيِ"[1]، فخطاب الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وكلامهُ يشكّلُ "تراثًا جماً يمُثل قدرة هذه الأمة العظيمة على الخلق والإبداع متمثلة بقابليَّة الإمام البلاغيَّة وقدرتهُ على التَّعبير عن شتّى المعاني بأسلوب رائع مُؤثر، وقد استمد معانيه وأفكاره من معين القرآن الذي نهل أدبه، وارْتوى من آياته"[2].

فالإمامُ المهدي(عجل الله تعالى فرجه الشريف) شديد التَّأثر بالقرآن الكريم قولاً وفعلاً، وقد عَملَ(عليه السلام) على ترسيخ الثَّقافة القرآنيَّة في أذهان النَّاس بلفت أنظارهم إلى وجوب إحلال هذه الثَّقافة في النُّفوس وإمكانيَّة استبدال البناء اللغويّ الجاهليّ بآخر جديد معجز في بنائه ومعانيه في ضوءِ قدرتها على استيعاب الحياة.

والمُتمعن في أدعيَّة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) يجدُ أنَّها لا تخلو من الأثر والتَّأثر القرآنيّ شكلاً ومضموناً في كلِّ دعاء يدعو به(عليه السلام)، وذلكَ نحو قوله(عليه السلام): «اللَّهُمَّ إنِيِّ أَسْأَلُكَ باسْمكَ الَّذي عَزَمْتَ به عَلَى السَّمَاوَات وَالأَرْضِ فَقُلْتَ لَهُمَا: ﴿**إِتِيَا طَوْعاً أَوْكَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾[فصلت:11]، وَباسْمكَ الَّذي عَزَمْتَ به عَلَى عَصَا مُوسَى ﴿**فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ**﴾[الأعراف:117]، وَأَسْأَلُكَ باسْمكَ الَّذي صَرَفْتَ به قُلُوبَ السَّحَرَةِ إلَيْكَ حَتَّى ﴿**قَالُوا أَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ**﴾[الأعراف:122 - 123]، أَنْتَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»[3]، وأيضاً في قوله: «إلهي وَأَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ باسْمكَ الَّذي دَعَاكَ به أَيُّوبُ لَمَّا حَلَّ به الْبَلاءُ بَعْدَ الصِّحَّة، وَنَزَلَ السُّقْمُ منْهُ مَنْزِلَ الْغَافيَة، وَالضَيقُ بَعْدَ السَّعَة فَكَشَفْتَ ضُرَّهُ، وَرَدَدْتَ عَلَيْه أَهْلَهُ وَمثْلَهُمْ مَعَهُمْ، حينَ نَاداكَ دَاعيًّا لك، راغبًا إلَيْكَ، راجياً لفَضْلكَ، شَاكيًّا إلَيْكَ: ﴿**رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾[الأنبياء:83]..، إلهي وَأَسْأَلُكَ باسْمكَ الَّذي دَعَاكَ به يُونُسُ بْنُ مَتَى في بَطْنِ الْحُوتِ حينَ نَاداكَ في ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ﴿**لَا**

1 - القمي، مفاتيح الجنان، ص181 .

2 - الصفار، ابتسام، أثر القرآن في الأدب العربي، ص 186 .

3 - الصحيفة الرضوية الجامعة، محمد باقر الأبطحي: 260.

﴿إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[الأنبياء:87]، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاسْتَجَبْتَ لَهُ دُعَاءَهُ وَأَنْبَتَّ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ، وَأَرْسَلْتَهُ إِلَى مَائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، وَكُنْتَ مِنْهُ قَرِيباً يَا قَرِيبُ...، إِلهي وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي دَعَاكَ بِهِ أَصَفُ بْنُ بَرْخِيَا عَلَى عَرْشِ مَلِكَةِ سَبَا، فَكَانَ أَقَلَّ مِنْ لَحْظَةِ الطَّرْفِ، حَتَّى كَانَ مُصَوَّراً بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَمَّا رَأَتْهُ ﴿قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾[النمل:22]، فَاسْتَجَبْتَ لَهُ دُعَاءَهُ، وَكُنْتَ مِنْهُ قَرِيباً يَا قَرِيبُ..، إِلهي وَأَسْأَلُكَ بِالإِسْمِ الَّذِي دَعَاكَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ زَكَرِيَّا حِينَ سَأَلَكَ دَاعِيًّا رَاجِيًّا لِفَضْلِكَ، فَقَامَ فِي الْمِحْرَابِ يُنَادِي نِدَاءً خَفِياً فَقَالَ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً﴾[مريم:5-6]، فَوَهَبْتَ لَهُ يَحْيَى، وَاسْتَجَبْتَ لَهُ دُعَاءَهُ وَكُنْتَ مِنْهُ قَرِيباً يَا قَرِيبُ ...، إِلهي وَأَسْأَلُكَ بِالإِسْمِ الَّذِي سَأَلَتْكَ بِهِ إِمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[التحريم:11]، فَاسْتَجَبْتَ لَهَا دُعَاءَهَا، وَكُنْتَ مِنْهَا قَرِيباً يا قَرِيبُ..، إِلهي وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي دَعَتْكَ عَبْدَتُكَ وَصِدِّيقَتُكَ مَرْيَمُ الْبَتُولُ وَأُمُّ الْمَسِيحِ الرَّسُولِ إِذْ قُلْتَ: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[التحريم:12]، فَاسْتَجَبْتَ دُعَاءَهَا، وَكُنْتَ مِنْهَا قَرِيباً يَا قَرِيبُ..، وَأَسْأَلُكَ يَا إِلهي وَإِلَهَ كُلِّ شَيْءٍ، وَرَبِّي وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَدْعُوكَ بما دَعَاكَ بِهِ عَبْدَاكَ وَرَسُولَاكَ، وَنَبِيَّاكَ وَصَفِيَّاكَ، مُوسَى وَهَارُونَ حِينَ قَالَا دَاعِيَيْنِ لَكَ، رَاجِيَيْنِ لِفَضْلِكَ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَاهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطمس عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[يونس:88]، فَمَنَنْتَ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِمَا بِالإِجَابَةِ لَهُمَا، إِلَى أَنْ قَرَعْتَ سَمْعَهُمَا بِأَمْرِكَ، فَقُلْتَ اللَّهُمَّ رَبِّ: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يونس:89]..، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ، وَأُنَادِيكَ، بِمَا نَادَاكَ بِهِ سَيِّدِي، وَسَأَلَكَ بِهِ نُوحٌ إِذْ قُلْتَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾[الصافات:75]»[1].

إذن الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف انبعث في سلوكه من ثقافة قرآنيَّة وعاها وذاب في معانيها فجسدها في عمله، مثلما جرت على لسانه بياناً وإبداعاً مثلما سنرى في المبحث الثَّاني، لأنَّ لُغة الإمام عليه السلام تطابق صادق بين الإيمان والعمل، وبين المعنى والأداء اللفظي، وخلاصة القول: إنَّ سيرة الإمام

1 - الصحيفة الرضوية الجامعة، ص. ص. 272 - 280.

المهدي عجل الله فرجه الشريف كلُّها تنطقُ بآيات الكتاب العزيز سلوكاً وقولاً، لذلك كانت لغته الصَّدى الحقيقيّ للغة القرآن الكريم، فلم تجد ألفاظه غرابة في أداء الفكر الإسلاميّ العميق، لأنَّها ببساطة ألفاظ القرآن الكريم ترسم بها جُمله، وبنى عليها صياغاتهُ، والبحث كلَّهُ يبرهنُ على أنَّ كلام الإمام عليه السلام دون كلام الخالق وفَوق كلام المخلوق.

المبحث الثاني

الأثر القرآني وَمَجالاتُه في دعاء الافتتاح

وممَّا تقدّم، يتّضح أنَّ الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف مُتابع دقيق لاقتفاء الصِّياغات الفنيَّة في التَّعبير القرآنيّ، وهذه المتابعة التي صدرت عنهُ عجل الله فرجه الشريف من ثقافته فطريَّة التي نشأ عليها، ولم يجد عنتاً في توخيها واستعمالها في موارد بعيدة أحيانًا عن التَّوظيف القرآنيّ، ولكنَّها امتداد لهُ، واعتراف من منبعه الثَّر.

ولا ريبَ أنَّ الإمام عليه السلام قد أشربت روحهُ حُبّ القرآن صياغةً ومضمونًا، حتى جرى ذلكَ على لسانه متمثلاً ومعيداً ما اختزن في ذاكرتهَ، فهو يتتلمذ على القرآن الكريم، ويستوحيه في عرفان إسلامه، وتقرير إيمانه، فكانت نظرته إلى الخلق والخالق نظرة قرآنيَّة، يبتكر ما شاء ابتكار التَّلميذ في الحكايَّة عن الأستاذ.

إنَّ المُحتوى الذي حملتهُ ألفاظهُ عجل الله فرجه الشريف في دعاء الافتتاح يستندُ إلى مرتكزات رئيسة مرتبطة ببنية التَّكوين الفكريّ لذهنيّته عليه السلام، والتي لا يُمكنُ فصلها عن المضمون القرآني، وكانَ فيها الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف "يصدرُ عن رؤية كونيَّة شاملة، محاورها ثلاثة موضوعات لا انفصال بينها هي: الله والعالم والإنسان"[1].

وحتى التَّجارب الشَّخصيَّة التي مرَّ بها الإمام عليه السلام انْصهرت في عوالم هذه المحاور بحيث استطاع

1 - نجيب محمود، المعقول واللامعقول، ص 30.

أن ينقلها من الموقف الشَّخصي في الأداء إلى أُفق عام أرحب في الشُّموليَّة وتقديمها زاداً للإنسانيَّة يمكنُ أن تستقى منهُ عبر مختلف عصورها، ولعلَّ هذا بعض ما يُفسر سرّ الحياة في أدعيَّة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، وسيرورتها في الآفاق، فليس للإمام عليه السلام موقف ضيق منطو على تجربة محدودة تموت بموت صاحبها، بل كلّ تجاربه الشَّخصيَّة منطلقة من المفهوم القرآنيّ للحياةِ والإنسان وارتباطه بخالقه، ومن هنا نجد تجاربهُ ممَّا تتواكب معهُ مفاهيم الإنسانيَّة بمختلف توجهاتها وانتماءاتها، لأنَّها ببساطة مُستقاة من المعين القرآنيّ الذي يكتنفُ الإنسان في الدُّنيا والآخرةِ.

ولا مُغالاة في القول: إنَّ كلّ كلامه عليه السلام صدى للمضمون القرآنيّ، ولكنَّ البحث عن الأثرِ القرآنيّ الذي يتوخاه المنهج العلميّ سينصبّ على أكثر المعانيّ وأبلغها إيراداً على لسان الإمام المهدي عليه السلام، وسنختارُ جُزءً منها في دعاء الافتتاح وهي:

1 - التَّسْديدُ الإلهي:

وَرَدَ في دعاء الافتتاح المبارك عن الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف أَنَّهُ قالَ: «وَأَنْتَ مُسَدِّدٌ لِلصَّوابِ بِمَنِّكَ»[1]، فهذا النَّص الشَّريف يُشيرُ إلى أنَّ الله تعالى يمُكّنُ ويُسدّدُ العبد المؤمن المُتحرك والمتوجه نحوهُ تعالى من المَسكِ الفعليّ بأسبابِ الوصول وآلياته المختلفة والمتعددة إلى الحق والهدايَّة الحقيقيَّة، وعندما نُيمِّمُ أبصارنا صوب القرآن الكريم نجدُ هذا الأثر واضحاً فيه، فالله تعالى قد نصَّ على هذا الأمر العقديّ والإيمانيّ في كتابهِ العزيز، وذلكَ نحو قوله -تعالى-: ﴿**وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا**﴾[إبراهيم:12]، وفي آية آخرى ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[العنكبوت:69]، فتسديدُ الله -تعالى- عبدَه المؤمن هو فضل منهُ -جلَّ ذكرهُ-، ومَنٌّ كريمٌ، فلا جبرَ ولا تفويضَ في سعي الإنسان نحو ربّهِ تبارك وتعالى، بل هو منٌّ وتوفيقٌ إلهيٌّ[2]، لأنَّ اللهَ تعالى هو الملهمُ والمرشدُ للتفكيرِ الصَّحيح، والعملِ السَّليم الصَّائب بعنايته ولطفه ومنّه، ولولا ذلكَ لبقيَ الإنسان في مسعاه، واتّبع خطوات الشيطان الرَّجيم، وهو يحسب أنَّهُ يفعلُ حُسنًا وصوابًا، وهذا ما أشارَ إليهِ قوله -تعالى-: ﴿**إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ**

1 - الصحيفة الرضوية الجامعة، ص 300.

2 - السيد شبر، تفسير شبر، ص 258.

أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأعراف:30]، وفي قوله كذلك: **﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ۞ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾**[الزخرف:37].

فهذا النَّص من دعاء الافتتاح (وَأَنْتَ مُسَدِّدٌ لِلصَّوابِ بِمَنِّكَ) هو الحجر الأساس الوجوديّ للإنسان وتكامله في الحياة الدنيا، ومنهُ تبدأ تنشئة المجتمع الصَّالح المؤمن الذي سيتحقّق يقينًا في آخر الزَّمان عند ظهور الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف، وأمَّا نحن اليومَ ومن قبلُ فقد ابتعدنا عن هذه المرتكزات التأسيسيَّة لكيان المجتمع الصَّالح المؤمن، فأسهمنا بشكلٍ أو آخر في تأخير الفرج والظُّهور المقدس، فمن المهم أن نعمل جاهدين على استرجاع مضامين منهاج دعاء الافتتاح أو مضامين منهاج القرآن بصورة عامة، كي نُسهم - ولو بالحدّ الأدنى وذلك أضعف الإيمان- بتعجيل الفرج لإمامنا المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

2 - الرَّحْمَة الإلهيَّة:

وَرَدَ في دعاء الافتتاح أَنَّهُ عليه السلام قالَ: «وَأَيْقَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فِي مَوْضِعِ العَفْوِ وَالرَّحْمَةِ»[1]، الرَّحمةُ الإلهيَّةُ تتجلىّ في كلِّ شيءٍ ولا سيما عند العفو والمغفرة، فمن حقّ الخالق أن يأخذ عبدهُ المُسيء بالعقوبة عند أول معصيَّة من دون إمهال، ولكنَّ الله تعالى بلُطفه فتح أبواب رحمته في كثيرٍ من المناسبات، فجعلَ الحسنة بعشر أمثالها، والسَّيئة بسيئة، وفتح باب التَّوبة التي تجبّ ما قبلها من السِّيئات، وجعل من الحج المبرور كفّارة لكل الذُّنوب، وجعل صوم شهر رمضان سببًا لهطول الرَّحمة الإلهيَّة الواسعة التي يعتق بها رقابًا من النَّار، وكذا الحال في كثير من الأعمال التي فتحها الله لعباده في الأوقات والمناسبات الخاصّة الزَّمانيَّة والمكانيَّة، نحو: أوقات الصَّلاة، وليالي الجمع، وأيام الجمع، وليالي القدر، وما شاكلَ هذا، وأثر هذا نجدهُ في قوله تعالى: **﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾**[طه:8]، ففي ضوء هذه الآيَّة الشَّريفة يتبيَّنُ أنَّ الرَّحمة مع الغفران، ويقين الدَّاعي مع ما أوجب الله -عزَّ وجلَّ- على ذاته من كونه (غفّارًا) بالمبالغة، واتّحاد جزائي القضيتين الشَّرطيتين، فالتَّوبة والإيمان والعمل الصَّالح والهداية هي من لوازم موضع العفو والرحمة.

1 - الصحيفة الرضوية الجامعة، ص 300.

3 - العِقابُ الإلهِيّ:

قالَ الإمامُ المهديعليه السلام في دعاءِ الافتتاح: «وَأَشَدُّ المُعاقِبينَ في مَوْضِعِ النِّكالِ وَالنَّقِمَةِ»[1]، فهذا النَّص الشَّريف يُبينُ ضرورةَ الحذرِ من الله تعالى، وإدراك أنهُ تعالى يُعاقبُ مَن يتجاوزُ على حرمتهِ، فضلاً عن حقوقهِ -جلَّ ذكرهُ-. فالإنسانُ غالباً ما يستغلُ حلم الله، ويغفلُ أنّ الله تعالى بقدرِ ما هو حليم فإنَّه -عزَّ اسمهُ- شديدُ العقاب في حال تجرّؤ الإنسان على مناطق الحرام العقديَّة والشَّرعيَّة نحو: استحلال ما حرّم الله تعالى، أو الكفر بهِ سبحانه، وهذا الأثر يمكنُ أن نلتمسهُ من القرآنِ الكريم، وذلكَ في قولهِ تعالى: ﴿**اعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[المائدة:98]، فالمُلاحظ من هذهِ الآيَّة المباركة مدى التوازن الحقوقيّ والنِّظاميّ والقيميّ في تعاطيّ الله-عزَّ وجلّ- في حسابهِ وجزائهِ مع النَّاس، فالإمامُ المهديعليه السلام في هذا الدُّعاءِ المبارك نبّه على هذهِ الحقيقة وأدغمها قيمةً سرمديَّة، ليلتفتِ الإنسانُ المؤمن إلى تلك الحقيقة، فقراءة مثل هذا الدُّعاء ليست نُطقاً بصوت حسَن لكلماتٍ عابرة، بل هي وعيٌ وفهم وإدراك لما وراء الألفاظ من معانٍ ومقاصد يُنشئها المعصوم عليه السلام في كيفيةِ تعاطيهِ مع ربهِ سبحانهُ تعالى.

4 - التَّحميدُ وَالتَّوحيد:

قالَ الإمامُ عليه السلام في دعاءِ الافتتاح: «الحَمْدُ لله الَّذي لَمْ يَتَّخِذْ صاحِبَةً وَلا وَلَداً، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في المُلْك، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَليٌّ مِنَ الذُّل وَكَبِّرْهُ تَكْبيراً، الحَمْدُ لله بجَميعِ مَحامده كُلِّها عَلى جَميعِ نعَمه كُلِّها، الحَمْدُ لله الَّذي لا مُضادَّ لَهُ في مُلْكه وَلا مُنازِعَ لَهُ في أَمْره، الحَمْدُ لله الَّذي لا شَريكَ لَهُ في خَلْقه، وَلا شَبيهَ لَهُ في عَظَمَته، الحَمْدُ لله الفاشي في الخَلْق أَمْرُهُ وَحَمْدُهُ، الظاهر بالكَرَم مَجْدُهُ، الباسط بالجُود يَدَهُ، الَّذي لا تَنْقُصُ خَزائنُهُ، وَلا يَزيدُهُ كَثْرَةُ العَطاء إلاّ جُوداً وكَرَماً، إنَّهُ هُوَ العَزيزُ الوَهَّابُ»[2]، في هذا النَّص الشرَّيف يُعلّمنا الإمام الحُجةعليه السلام بأسلوبيَّة مخاطبة الله تعالى، إذ أنَّهعليه السلام ركّز بصورةٍ واضحة جليّة على استعمال جملة (الحمدُ لله) مراراً وتكراراً في حواريَّة دعاء الافتتاح المبارك، وهذا الأمر يكشفُ لنا عن عُمق استحقاق الله -عزَّ وجلَّ- الحمد

1 - الصحيفة الرضوية الجامعة، ص 300 .

2 - الصحيفة الرضوية الجامعة، ص301 .

ومداها، الذي هو الثَّناء عليه تعالى دوماً باللسانِ، والوعيّ بواقع ما أنعم به علينا -جلَّ ذكرهُ-.

ومعنى (الحمد لله) وهو الثَّناء بالجميلِ على قصد التَّعظيم والتَّبجيل للممدوحِ سواء لنعمةٍ أو غيرها، أو هو الثَّناء على الجميل الاختياري، لأنَّهُ ثابت لله من غير أن يلحظ الإنسان نِعَم الله عليه، بل لأنَّ الله تعالى لا يفعلُ إلَّا الجميل، فهو مُستحق الحمد على فعلهِ[1].

والألفُ واللامُ في لفظةِ (الحَمْد) للجنس والاستغراق بمعنى أنَّ كلَّ حمدٍ وثناءٍ يختصُ باللهِ تعالى دون سواه على ما أنعم على عبادهِ من النَّعم بأنواعها وأصنافها[2].

وبهذا يكونُ الثَّناء والتَّقديس منحصراً باللهِ تعالى، فلا أحد غيرهُ يستحقُّ الحمد والثّناء إلّا إياه -جلَّ جلالهُ-، لذا جاء صوغ العبارة بصورة الجملة الاسميَّة، للتدليل على الدَّوام والثَّبات باستحقاق الله تعالى الحمدَ دومًا، ولبيان مزيد الاهتمام بحمدهِ تعالى من العبدِ المؤمن، فمفهوم الحمد نجدهُ مهيمنًا على الوجود بأسرهِ، فهو في مبتدأ الحياة والتَّكوين حتى المنتهى، وهذا المفهوم نجدهُ واضحاً في قولهِ تعالى: ﴿**وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ**﴾[الروم:18]، وأيضًا في قولهِ تعالى: ﴿**وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ**﴾[القصص:70]، وفي قولهِ تعالى: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ**﴾[الأعراف:43].

ومعرفةُ عبارة (الحمدُ لله) والوعيّ بها، لابدَّ أن تكون قريبةً من العبدِ في معطياتهِ العمليَّة، إذ أنَّنا كثيراً ما نذكرُ ونُردّدُ هذهِ العبارة الجميلة الرَّاقية في كلّ صلاةٍ يوميًّا ولا سيّما في سورةِ الحمد (الفاتحة) ﴿**الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**﴾[الفاتحة:2]، أمَّا معنى كلمة (الله) فهي عَلَمٌ يُطلق على ذات الله المقدسة الجامعة لصفات الكمال والجلال[3].

وبصورةٍ عامة، فإنَّ النَّص المَزبُور الذي نحن بصدد بيان مضامينه ومعطياته العقديَّة والإيمانيَّة،

1 - ابن منظور، لسان العرب، مادة (حمد)، ج3 ص 314، الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ص 149.
2 - الهديبي، حبيب، إشراقات فكرية من أنوار الخطبة الفدكية، ص82.
3 - الحلبي، السمين، الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج1، ص23.

مطابقٌ تمامًا في أغراضه وتأسيساته لأغراض سورة (الفاتحة) وتأسيساتها، إذ أنَّ هذا النَّص يُركّز عقديًّا على أصل توحيد الله تعالى وتنزيهه، الذي هو أصل الأصول الدِّينيَّة الخمسة، فمن التَّوحيد الإلهيّ يترشّح وجوبُ بعثة الرُّسل والأنبياء، إذ أنَّهم (عليهم السلام) هم الواسطة والرَّابط بين الله تعالى والبشر، وهذا ما أشارَ إليه قولهُ تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾[الشورى:51]، ويترشّحُ من التَّوحيد لطف الله وعدله، ووُجوب تنصيبه تعالى الأئمةَ والأوصياء(عليهم السلام) من بَعْد الرُّسل، وهذا هو معنى أصل الإمامة، ومقتضى عدل الله تعالى لابدَّ أن يبعث الخلائق بعد تكليفها ليُجازيها ثوابًا أو عقابًا، وهذا هو أصل المعاد الرُّوحيّ والجسمانيّ للإنسان يوم يقوم النَّاس لربِّ العالمين.

ففي قول الإمام الحجة (عليه السلام): «الحَمْدُ لله الذي لَمْ يَتَّخِذْ صاحِبَةً وَلا وَلَداً، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في المُلْك، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّل وكَبِّرْهُ تَكْبيراً»، وفي قوله (عليه السلام): «الحَمْدُ لله الَّذي لا شَرِيكَ لَهُ في خَلْقِه، وَلا شَبيهَ لَهُ في عَظَمَته» تقريرٌ من إمام معصوم بحقيقة وحدانيَّة الله -جلَّ اسمهُ- الفرد الصَّمد، الذي ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[الشورى:11]، ونفيٌ لأباطيل اليَّهود والنَّصارى ومزاعمهم، الذَين زعموا أنَّ لله تعالى صاحبةً وولداً، وذهبت الجرأة والوقاحة باليَّهود إلى أن زعموا أنَّهُ (جلَّ جلالهُ) ضعيف وحاشاهُ من هذا، فالقرآنُ الكريم فنّدَ كلّ هذا المزاعم وأبطلها جملةً وتفصيلاً، وذلكَ ما جاءَ في قوله تعالى رادًّا على تلكَ المزاعم الباطلة: ﴿**وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً**﴾[الجن:3]، وقالَ -تعالى-: ﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[الأعراف:101]، وقالَ تعالى: ﴿**وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾[التوبة:3]، وقالَ تعالى: ﴿**وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَالقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللهُ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ**﴾[المائدة:64].

وأمَّا قوله عليه السلام: «الحَمْدُ للهِ الَّذي لا مُضادَّ لَهُ في مُلْكِه وَلا مُنازِعَ لَهُ في أَمْرِه»، فقد تقدّم معنى الحمد لله، فلعلّهُ يكون المعنى الحمد لله الذي لا ضدّ لَهُ، والضَّدُّ اصطلاحًا: هو المُساوي للآخر في القوة والمُمَانع له في الوجود[1]، بمعنى أنَّ الله -تعالى- ليس لهُ ضدٌّ أيًّا كان، إلهًا آخرَ أو بشراً أو أي شيء آخر، إذ تكون لهُ من القدرة المماثلة لقدرة اللهِ تعالى، فتعارضُ قدرةَ الله تعالى أو تمنع جريان أوامره في الكون.

وهذه الضِّديَّة لله تعالى ممتنعة عقلاً ونقلاً، فقد أثبت الفلاسفة المسلمون استحالة ذلك عقلاً، لأَنَّهُ يتولدُ من ذلكَ تمانعٌ في الإرادات، وتعارض في الأوامر (بين الله تعالى وضدّه) على الفرض، ومن ثم يفسدُ نظام الوجود عامةً والكون خاصّة، وهذه الحقيقة العقلانيَّة الفلسفيَّة لها أثرٌ واضحٌ في القرآن الكريم، وذلكَ نحو قولهُ تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾[الأنبياء:22]، بمعنى (لو كان فيهما) أي السَّموات والأرض (آلهة إلاَّ الله) أي غيره (لَفَسدَتا)، وخرجتا عن نظامهما المشاهَد لوجود التَّمانع بينهم، وفق العادة عند تعدّد الحاكم يحصل التَّمانع في الشَّيء وعدم الاتفاق عليه[2]، والحال أنَّنا لم نلحظ ونشهد فساداً في الوجود والكون، وهذا دليلٌ عقليٌّ على بداعة نظام الوجود ووحدانيَّة خالقه الله تعالى وواحديته، لذا خُتمت الآية بقوله تعالى: (فسبحان الله)، (فسبحان) تنزيه (جلَّ ذكرهُ) خالق (العرش) عما يصف الكفار بهِ اللهَ من الشَّريك له وغيره.

وقد اقتضبَ أمير المؤمنين عليه السلام مفهوم التَّوحيد الإلهيّ ومعناه بكلمةٍ واحدة، وذلكَ في قولهِ: "التَّوحيد ألاَّ تَتوهّمه"[3]، فهذهِ كلمةٌ وجيزةٌ بلفظها، بيد أنَّها ثقيلة بمعناها ومُعطياتها وقيمتها، ووفّرت للمؤمنين جهدًا كبيراً في ضرورة إدراكها واقعيًّا و وَعيها حسيًّا وقلبيًّا.

فالإنسانُ حسبَ تركيبته الذِّهنيَّة، كلَّما أراد أن يحكم على شيءٍ أسرعَ إلى ذهنهِ متصوراً ذلك الشَّيء لكي يحكمَ عليهِ أو يُحاول إدراكَه، ولكن هذا لا يتحقق مع حقيقة الله تعالى الواقعيَّة التي

1 - الكفوي، الكليات، ص 574.
2 - البغوي، تفسير البغوي، ج3، ص 546.
3 - الشريف الرضي، خصائص الأئمة، ص124.

عجزت العقول عن إدراك كُنه معرفتها، فضلا عن عجزها عن إدراك حقيقتها، ولا يتصوّر الإنسان في يوم ما إمكانية الإحاطة بمعرفة ذات الواجب تعالى شأنه وكنهه، وكل ما يتصوّره المخلوق ويميزه بوهمه بأدق معانيه، فهو مخلوقٌ مثله مردود إليه، فالكلّ متحيّر في معرفة كُنْه الباري تعالى وتقدّس، وإنَّما يُعرف تعالى شأنهُ بالآثار، واستشعار وجوده كخالق حقيقي لنا تعالى.

ولابدَّ أن يلتفتَ الإنسان المؤمن التفاتةً عقليَّة يقينيَّة إلى أنّ توحيد الله -عزَّ وجلَّ- ليس مجرد ألفاظٍ يُردّدها، نحو: تأديته الشهادة (ألاَّ إله إلاّ الله)، نعم هذا مطلوبٌ ذكرُه والإيمان به قلبًا ووجدانًا، لكنَّ التَّوحيد الحقيقيّ أن يتيقّن الإنسانُ المؤمن بأنّ خالقه الله تعالى واحدٌ أحد فردٌ صمد، بمعنى أن يتعقّل بذهنه نفيَ الشَّريك عنهُ قطعاً، وهذا هو معنى التَّوحيد الذَّاتيّ لله تعالى[1] وأثر هذا المعنى نجدهُ في القرآن الكريم، إذ هناكَ سورةٌ قصيرةٌ بألفاظها كبيرةٌ بمعطياتها وثمارها أكّدتْ هذا المعنى، ألا وهي سورة التَّوحيد (الإخلاص) المباركة: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾[الإخلاص:1-4].

وإذا أدرك الإنسان المُؤمن مفهومَ التَّوحيد الذَّاتي لله تعالى وتيقّن منهُ، فعليه أن يُدركَ ويفهم التَّوحيدَ الصِّفاتي لله تعالى، بمعنى أن يعرف أنَّ لله تعالى صفات كماليَّة وثبوتيَّة، نحو كونهُ -عزَّ وجلَّ- حيًّا وسميعًا وبصيراً وعليمًا وقادرًا ومُريدًا، وفي الوقتِ ذاتهُ مطلوب منهُ أن يُنزّه ربهُ سبحانهُ عن صفات النَّقص، التي تُسمّى بالصِّفات السَّلبيَّة، أي التي يجبُ سلبُها عن الله -جلَّ شأنه- وعدمُ توصيفهُ بها، منها: الجسمانيَّة، وكونه في مكان، أو لهُ عرضٌ أو طولٌ، أو كونهُ في جهة ما، أو مُتّحدًا مع غيرهِ مثلما زعم النَّصارى ذلكَ، أو مثلما ذهبت بعض الفرق الضَّالة إلى ذلكَ فحسبت نفسها على الإسلام، وقالت بجسمانيَّة الله تعالى عن ذلكَ علوًّا كبيراً[2].

وأيضًا، فعلى الإنسان المُخلص في إيمانه أن يدرك في حال توحيده لله (جلَّ ذكرهُ) ويقينه بذلكَ، أنَّ لله تعالى أفعالاً يجب أن يعتقد بها، وذلكَ نحو كونه تعالى خالقاً، وباسطَ الرزق، وباعثَ من في القبور، ومجريَ الأمور، ويُحيي ويمُيت وغيرها، وهذا هو التوحيد الأفعالي لله

1 - الصدوق، التوحيد، ص84.

2 - الصدوق، التوحيد، ص 139.

تعالى[1]، بمعنى أنَّهُ تعالى مستقلٌ في أداء أفعاله وقاهرٌ غير مقهور، لذا ذكرَ الإمامُ المهدي عجل الله فرجه الشريف هذا الأمر وبيَّنهُ ووضّحه، وذلكَ بقوله عليه السلام: «الحَمْدُ لله الفاشِي في الخَلْق أَمْرُهُ وَحَمْدُهُ، الظّاهِر بالكَرَم مَجْدُهُ، الباسِط بالجُود يَدَهُ، الَّذِي لا تَنْقُصُ خَزائِنُهُ، وَلا يَزِيدُهُ كَثرَةُ العَطاء إلاّ جُوداً وكَرَمًا»، وهذا إشارة منهُ عليه السلام إلى ضرورةِ وعي وفهم توحيد اللهِ الأفعالي عقلاً، وحمدهُ سبحانهُ وتعالى على ذلكَ فعلاً.

5 - المَشِيئةُ الإلهيّة:

قالَ الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف في دعاء الافتتاح: «الْحَمْدُ للّٰه مالِك الْمُلْك، مُجْرِي الْفُلْك، مُسَخِّر الرِّياح، فالِق الْإِصْباح، دَيَّان الدِّين، رَبِّ الْعالَمِينَ»[2]، يُشيرُ هذا النَّص الشريف إلى أنَّ اللهَ تعالى وحدهُ مَن لَهُ السَّلطنة التدبيريَّة على نظام الوجود عامة، منذ أزل الوجود وإلى ما لا نهاية لهُ، فـ(مالِك الْمُلْك) وصفٌ يقينيٌّ وواقعيٌّ للهِ تعالى لا أحد سواه، بمعنى أنَّ لهُ (جلَّ اسمهُ) كلّ ما خلقهُ في الوجود من السَّموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، وما نَعلم وما لا نعلم، يتصرّفُ به كيف يشاءُ سبحانه وتعالى، وهذا ما أشارَ إليه القرآن الكريم، وذلكَ في قوله تعالى: ﴿**قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[آل عمران:26].

ومُفردة (مُجري الفُلك) هذهِ صورة من صور إدارة الله تعالى لنظام الوجود وتدبيره لهذا الكون، والفُلك بضم الفاء هي السّفن[3]، وقد جاءَ أثر هذا المعنى في القرآن الكريم، فقال عزّ من قائل: ﴿**هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ**﴾[يونس:22]، فكلُّ شيءٍ يتحرّك بأمر الله تعالى، ولا يخرج عن سلطنته سبحانه على نظام الوجود، حتى السّفنُ التي نراها تجوب البحار، فهي تتحرك بمشيئةِ الله تعالى وإرادته.

وأمَّا (مُسخّر الرياح) فهذه صورة أخرى وعجيبة من عجائب الله تعالى في تسخير الرَّياح لخدمة

1 - السبحاني، الإلهيات، ص 449.
2 - الصحيفة الرضوية الجامعة، ص 302 .
3 - ابن منظور، لسان العرب، ج 10، ص 478.

البشريَّة، فيقولُ الله تعالى بشأن هذه الحقيقة التَّدبيريَّة فعليًّا: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ المَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[الأعراف:57]، فاللهُ تعالى هو الذي يرسلُ الرِّياح اللينة الطيبة مبشراتٍ بالغيث الذي تثيرهُ بإذن الله سبحانهُ، فيستبشرُ الخلق برحمةِ الله، حتى إذا حملت الريحُ السَّحاب المُحَمّل بالمطر، ساقه الله لإحياءِ بلدٍ قد أجدبت أرضُه، ويَبست أشجاره وزرعه، فأنزل الله به المطر، فأخرجَ به الكلأ والأشجار والزروع، فعادت أشجاره مُحَمَلّة بأنواع الثمرات، كما نُحيي هذا البلد الميّت بالمطر، نخرجُ الموتى من قبورهم أحياءً بعد فنائهم، لتتّعظُوا فتستدلوا على توحيد الله وقدرته على البعث، فالرِّياح لها من الوظائف الحيويَّة ما يتوقف عليها نظام حياة الإنسان واقعيًّا، لذا فالقرآن الكريم إنمَّا استعرض وظائفَ الرياح مُذكّرا الإنسان بنعم ربه وفضله عليه، فقال الله تعالى: ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾[الحجر:22]، وقال تعالى: ﴿**اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾[الروم:48]، فإجراء الله تعالى الفُلكَ وتسخيره تعالى الرياحَ من النِّعم المَغفُول عن شكرها بشريًّا، ولهذا جاء ذكرُها من لدن الإمام المهدي عليه السلام، تذكيراً لنا بضرورة شُكر النِّعم.

(فالِق الإصباح)، وهذه العبارة هي الأخرى من عظيم صفات قدرة الله سبحانه، فقد أشارَ إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ**﴾[الأنعام:96]، بمعنى: أنَّ الله تعالى هو الذي شقّ ضياء الصَّباح من ظلام الليل, وجعل الليل مستقرًّا، يسكن فيه كلّ متحرك ويهدأ، وجعل الشمس والقمر يجريان في فلكيهما بحساب متقن مقدَّر لا يتغير ولا يضطرب، ذلك تقدير العزيز الذي عزَّ سلطانه، العليم بمصالح خلقه وتدبير شؤونهم. فتلك الظواهر الوجودية والكونية مَنْ مُهندسها ومدبّرها؟ أليس الله سبحانه؟ فأنىّ لنا نكران تلكَ النِّعم والغفلة عنها؟.

الخاتِمَة

يُعدُّ (الأثر القرآنيّ) مِن أهمِّ المواضيع المهمَّة التي لا يكادُ يخلو منها أيّ عملٍ أدبيّ أو علميّ، فكيف إذا كان هذا العمل مرتبطًا ارتباطًا وثيقاً بالقضيَّة العقديَّة، إذ ارتكز الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف في أغلب فقراة دعاء الافتتاح على النَّص القرآنيّ، ليبينَّ أنَّ القرآن الكريم هو الحجّة البالغة على النَّاسِ جميعاً، وأنَّ الاشتغال بهِ والتَّدبر في آياتهِ مِن أشرفِ الأمورِ.

وإنَّ الاستعانةَ بالمفردةِ القرآنيَّة قد أدّى إلى توسيع دائرة الضَّوء الدلاليّ في الدُّعاء المزبور، إذ إنَّها قد اكتسبت الدَّلالة الواسعة العميقة في ضوءِ السِّياق القرآنيّ، علاوة على السِّياق الخاص بكل واحدة مِن الدُّعاءِ.

وفي ضوءِ النَّظر إلى جميعِ الأثار القرآنيَّة في الدُّعاءِ يتبينَّ مدى تعمّق الإمامُ عجل الله تعالى فرجه الشريف في القرآنِ الكريمِ، حتى غدا من ضمن كلامهِ الشَّريف، يتبينَّ أيضاً وحدة منهجهِ المبارك في ذلك، فهو عليه السلام سائر على نهجِ القرآنِ الكريم، ولن يحيد عنهُ ولو بمقدار أنملة.

وأمَليّ كُلُّهُ أن يكونَ هذا الجُهد مؤهلاً للالتحاقِ في مسيرةِ البحث الأكاديميّ، ليُضيءَ إضاءةً بسيطةً في ميدانهِ، ويُفيد باحثاً أو طالبَ علم، والله العالم مِنْ وراءِ القصدِ.

ونسألُ اللهَ تعالى أن نكونَ من السَّائرينَ على نهجِ القرآنِ الكريمِ وعَدْله، أهل البيت عليهم السلام، وأن نكونَ ممَّن يعي القرآن وعي رسالة إلهيَّة، يُرادُ منها التَّطبيق على المعمورة لإصلاحها والنُّهوض بها.

وآخرُ دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرفِ الخلقِ والأنبياءِ والمرسلينَ، حبيبِ إلهِ العالمينَ أبي القاسمِ المصطفى محمَّد صلى الله عليه وآله، وعلى أهلِ بيتهِ الطيبينَ الطاهرينَ، وصحبهِ المنتجبينَ المُخْلَصِينْ، وَمَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى قيامِ يومِ الدِّينِ.

المصادِر والمراجِع

القُرآن الكريم

■ إبراهيم، طه أحمد، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع هجري، بيروت: دار الحكمة، من دون تاريخ.

■ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ط4 - 2005م.

■ باقر، السيد محمد، الصحيفة الجامعة لأدعية علي بن موسى الرضا وأبنائه الأربعة (عليهم السلام)، قُم- إيران: مؤسسة الإمام المهدي(ع)، مطبعة: جابخونه، ط1 - 1420هـ.ق- 1378هـ.ش.

■ البغوي، الحسين بن مسعود الفراء، تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1 - 1420هـ .

■ الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، بيروت: دار الكتاب العربي، من دون تاريخ.

■ الرضي، الشريف، خصائص الأئمة، تحقيق: محمد هادي الأميني، مشهد: إيران: مجمع البحوث الإسلامية، ط1 - 1406هـ.

■ السبحاني، الشيخ جعفر، الإلهيات، بيروت: الدار الإسلامية، ط1 - 1409هـ – 1989م.

■ السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدّر المصُون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دمشق: دار القلم، (د. ت).

■ شبر، السيد عبد الله، تفسير شُبّر، تحقيق: الشيخ علي الأسدي، قُم- إيران: مكتبة فدك لأحياء التراث، ط1 - 1428هـ - 2007م.

■ الصدوق، محمد بن علي بن الحسين، التوحيد، تحقيق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، قُم المقدسة: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، من دون تاريخ.

■ الصفار، ابتسام مرهون، أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري، بغداد: دار الرسالة، ط1 - 1974م.

■ العاني، د. سامي مكي، (دراسة وتحقيق)، ديوان كعب بن مالك الأنصاري، بغداد: مطبعة المعارف، ط1 - 1386هـ - 1966م.

■ الفيومي، أحمد بن محمد، المِصباح المُنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تحقيق: الدكتور خضر عواد، بيروت: مطبعة مكتبة مكتب لبنان، ط1 - 1987م.

■ القمي، الشيخ عباس، مفاتيح الجنان، بيروت: دار القارئ، ط2-1442هـ – 2020م.

■ الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، الكليات، مُعجم في المصطلحات والفروق اللغوية، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ط- 1976م.

■ الهديبي، الشيخ حبيب، إشراقات فكرية من أنوار الخطبة الفدكية، بيروت: دار البلاغة، ط1 - 1423هـ - 2002م.

البُحوث

■ الشنيني، إيمان، التّناصّ النشأة والمفهوم، مجلة أُفق الثقافية، العدد 1، أكتوبر 2003م.